وقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف] أى : كان أمره ضياعاً وهباءً ، فكأنه أضاع نفسه .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا(١) وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ(٢) يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾

قوله تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف] أى : قُلِ الحق جاء من ربكم ، واختار كلمة الرب ولم يَقُلْ من الله ، لأن الكل معتقد أن الرب هو الذى خلق ، كما فى قوله تعالى : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ [الزخرف]

وقوله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ .. ﴿٢٥﴾ ﴾ [لقمان]

فمعنى : ﴿ مِن رَّبِّكُمْ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف] أى : بإقراركم أنتم ، فالذى خلقكم وربَّاكم وتعهدكم هو الذى نزَّل لكم هذا الحق و ﴿ رَّبِّكُمْ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف] أى : ليس ربى وحدى ، بل ربكم وربُّ الناس جميعاً .

---

(١) السرادق : الخيمة وكل ما أحاط بالشىء أو ما يمد فوق صحن البيت . والمعنى هنا أى أنهم لا نجاة لهم فقد أحاط بهم سرادق النار فلا يفلتون منه . [ القاموس القويم ٣٠٩/١ ] .

(٢) قال ابن عباس : المهل ماء غليظ مثل دردى الزيت . وقال مجاهد : القيح والدم . وقال الضحاك : ماء أسود . وقال أبو عبيدة : هو كل ما أذيب من جواهر الأرض من حديد ورصاص ونحاس ، فتموج بالغليان ، فذلك المهل . [ تفسير القرطبى ٤١٢٤/٥ ] .

والحق : هو الشيء الثابت ، وما دام من الله فلن يُغيِّره أحد ؛ لأن الذي يتغير كلامه هو الذي يقضي شيئاً ويجهل شيئاً مُقبلاً ، وبعد ذلك يُعدِّل ، فالحق من الله لأنه سبحانه لا يَخْفَى عليه شيء ولا يَعْزُب عن علمه شيء ، لذلك لا استدراك على حُكْم من أحكامه من أحد من خلقه .

فالربوبية عطاء ، فربك الذي خلقك وأمدَّك بالنعم ، وهو الذي يُربِّيك كما يُربِّي الوالد ولده ؛ لذلك لم يعترض على الربوبية أحد ، أما الألوهية فمطلوبها تكليف : افعل كذا ، ولا تفعل كذا ، فخاطبهم بالربوبية التي فيها مصلحتهم ، ولم يخاطبهم بالألوهية التي تُقيِّد اختياراتهم والإنسان بطبعه لا يميل إلى ما يُقيِّد اختياراته ؛ لذلك يلجأون إلى عبادة آلهة أخرى ؛ لأنها ليس لها مطلوبات .

فالذي يعبد الشمس أو الصنم أو غيره : بماذا أمرك معبودك ؟ وعمَّا نهاك ؟ فما العبادة إلا طاعة عابد لمعبود ، إذن : فلهم أن يقولوا : نِعْمَ هذا الإله ، ونِعْم هذا الدين ؛ لأنه يتركني بحريتي أفعل ما أريد .

لذلك ؛ نجد الذين يدَّعُون ألوهية ، أو يدعون نُبوّة دائماً يميلون إلى تخفيف المناهج ؛ لأنهم يعلمون أن المناهج السماوية تصعُب على الناس ؛ لأن فيها حَجْراً على حرية حركتهم وحرية اختياراتهم ، فلما ادَّعى مسيلمة النبوة رأى الناس تتبرم من الزكاة فأسقطها عنهم ، وكذلك لما ادعتَ سجاح[1] النبوة خففتْ الصلاة ، وإلا ،

---

(١) هي : سجاح بنت الحارث بن سويد التميمية ، من بني يربوع ، متنبئة مشهورة ، كانت شاعرة أديبة عارفة بالأخبار ، ادعت النبوة بعد وفاة النبي ﷺ ، كان لها علم بالكتاب أخذته عن نصارى تغلب ، نزلت اليمامة واجتمعت بمسيلمة وتزوجها ، ثم بلغها مقتل مسيلمة ، فأسلمت وهاجرت إلى البصرة وتوفيت فيها ، وصلى عليها سمرة بن جندب والي البصرة لمعاوية عام ٥٥ هـ . [ الأعلام للزركلي ٣/٧٨ ] .

فكيف سيجمعون الناس من حولهم ؟

وما أشبه مُدَّعى الأمس بمدعى اليوم الذين يبيعون الدين بعَرَضٍ من الدنيا ، فيُفْتون الناس بتحليل ما حرَّم الله ، مثل الاختلاط وغيره من القضايا حتى هان أمر الدين على الناس . والدين وإنْ كان فطرياً فى النفس الإنسانية إلا أن الإنسان يميل إلى مَنْ يُخفِّف عنه ، وتعجب حين ترى بعض المثقفين وحملة الشهادات يذهبون إلى الدجالين ويُصدِّقونهم ، وترى الواحد منهم يُكذِّب نفسه أنه على دين يريحه ، ويفعل فى ظله ما يريد .

إذن : ما دُمْتم مؤمنين بربوبية خلق وربوبية إمداد وإنعام ، فعليكم أن تؤمنوا بما جاء من ربكم ، كما نقول فى المثل : ( اللى ياكل لقمتى يسمع كلمتى ) ، ومع ذلك ورغم فضل الله ونعمه عليهم قُلْ لهم : لا جبرَ فى الإيمان ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف] لأن منفعة الإيمان عائدة عليكم أنتم .

وقد جاء فى الحديث القدسى[1] : « إنكم لن تملكوا نفعى فتنفعونى ، ولن تملكوا ضُرِّى فتضرونى ، ولو أن أوَّلكم وآخركم ، وحيكم وميتكم ، وشاهدكم وغائبكم اجتمعوا على أتْقَى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى مُلْكى شيئاً ، ولو أن أولكم وآخركم ، وحيكم وميتكم ، وشاهدكم وغائبكم اجتمعوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئاً » .

« ولو أن أولكم وآخركم اجتمعوا فى صعيد واحد ، وسألنى كُلٌّ مسألته فاعطيتها له ما نقص ذلك مما عندى إلا كمغْرِز إبرة إذا

---

(١) أخرجه الترمذى فى سننه بنحوه ( ٢٤٩٥ ) ، وأحمد فى مسنده ( ٥/ ١٥٤ ، ١٧٧ ) من حديث أبى ذر رضى الله عنه .

غمسها أحدكم فى بحر ، وذلك أنِّى جواد واجد ماجد ، عطائى كلام وعذابى كلام ، إنما أمرى لشىء إذا أردتُه أنْ أقولَ له كُنْ فيكون » .

إذن : فائدة الإيمان تعود على المؤمن ، كما قال تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا .. (٤٦)﴾ [فصلت] لكنى أحب لخَلْقى أن يكونوا دائماً على خير منى ، فأنا أعطيهم خير الدنيا ، وأحب أيضاً أن أعطيهم خير الآخرة .

جاءتْ هذه الآية بعد قوله تعالى : ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ .. (٢٨)﴾ [الكهف]

وكان خصوم الإسلام حينما يَرَوْنَ الدعوة تنتشر شيئاً فشيئاً يحاولون إيقافها ، لا من جهتهم بالعدوان على مَنْ يؤمن ، ولكن من جهته ﷺ ، فأرسلوا إليه وَفْداً ، قالوا : يا محمد إنّا بعثنا إليك لنُعْذَرَ فيك ، لقد أدخلتَ على قومك ما لم يُدخلْه أحد قبلك ، شتمتَ آلهتنا وسفَّهْتَ أحلامنا وسبَبْت ديننا ، فإنْ كنت تريد مالاً جمعنا لك المال حتى تصير أغنانا ، وإنْ كنت تريد جاهاً سوَّدناكَ علينا ، وجعلناك رئيسنا ، وإنْ كنت تريد مُلْكاً ملكْناك .

فقال ﷺ : « والله ما بى ما تقولون ، ولكن ربى أرسلنى بالحق إليكم ، فإنْ أنتم أطعتُم فبها ، وإلاَّ فإنَّ الله ناصرى عليكم »[1] .

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية ( ١/٢٩٥ - ٢٩٧ ) ، أنه قد اجتمع ١٥ من كبار قريش عند الكعبة وأرسلوا إلى محمد ﷺ ليكلموه ، فعرضوا عليه الأموال والملك والشرف والجاه أو الطب إن كان له تابع من الجن ، فقال لهم ﷺ : « ما بى ما تقولون ، ما جئت بما جئت به أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ولكن الله بعثنى إليكم رسولاً ، وأنزل علىّ كتاباً .. فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم فى الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علىّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بينى وبينكم » .

وكانت هذه المحاولة بينهم وبينه ﷺ لعل الأمر حين يكون سراً يتساهل فيه رسول الله ، فلما لم يجدوا بُغْيتهم قالوا : نتوسل إليك بِمَنْ يحب ، فربما خجل أنْ يقبلَ منا ونحن خصومه ، فلنرسل إليه مَنْ يحبه ، فذهبوا إلى عمه أبى طالب ، فلما كلَّمه عمه قال قولته المشهورة : « والله ، يا عَمّ لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أتركَ هذا الأمر ما تركته ، حتى يُظهره الله ، أو أهْلِكَ دونه »(١)

فلما فشلت هذه المحاولة أيضاً أتَوْهُ من ناحية ثالثة ، فقالوا : ننتهى إلى أمر هو وسط بيننا وبينك : دَعْكَ من هؤلاء الفقراء ، واصْرف وجهك عنهم ، ولا تربط نفسك بهم ، ووجِّه وجهك إلينا ، فأنزل الله : ﴿ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ .. ﴿٢٨﴾ ﴾ [الكهف]

ثم بيَّن الحق سبحانه وتعالى أن الإسلام أو الدين الذى أنزله الله لا يأخذ أحكامه من القوم الذين أُنزل عليهم ؛ لأن رسول الله إنما أُرسلَ ليضع لهم موازين الحق ، ويدعو قومه إليها ، فكيف يضعون هم هذه الموازين ، فيأمرون رسول الله بأنْ يصرف وجهه عن الفقراء ويتوجَّه إليهم ؟

لذلك قال : ﴿ وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف] لأنه بعثنى بالحق رسولاً إليكم ، وما جئت إلا لهدايتكم ، فإنْ كنتم تريدون

---

(١) أورده ابن هشام فى السيرة النبوية ( ٢٦٦/١ ) معزواً لابن إسحاق أن يعقوب بن عتبة ابن المغيرة بن الأخنس حدَّثه أن قريشاً عندما طلبوا من أبى طالب أن يكف محمداً ﷺ عنهم فقال لابن أخيه : يابن أخى إن قومك قد جاءونى ، فقالوا لى كذا وكذا للذى كانوا قالوا له : فأبْقِ علىَّ وعلى نفسك ، ولا تُحمِّلنى من الأمر ما لا أطيق . فقال رسول الله ﷺ مقالته هذه . فقال أبو طالب : اذهب يا بن أخى ، فقل ما أحببت ، فو الله لا أسلمك لشىء أبداً .

توجيهى حسْب أهوائكم فقد انقلبتْ المسألة ، ودعوتكم لى أن أنصرف عن هؤلاء الذين يدعُـون ربهم بالغـداة والعشىّ وأتوجـه إليكم ، فهـذا دليل على عدم صدْق إيمانكم ، وأنكـم لستم جادِّين فى اتباعى ؛ لذلك فلا حاجة بى إليكم .

ثم يقول تـعالى : ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [الكهف] أى : ادخلوا عـلى هذا الأســاس : أن كل حَقٍّ يـنزل من الله ، لا أن آخذ الحق منـكم ، ثم أردّه إليكم ، بل الحق الذى أرسلنى الله به إليكم ، وعلى هذا مَنْ شاء فليؤمن ومَنْ شاء فليكفر .

والأمـر فى هذه الآية سبق أنْ أوضـحناه فـقلنا : إذا وجدنا أمـراً بغيـر مطلوب فلنفهم أن الأمر استُـعمِل فى غير مـوضعه ، كمـا يقول الوالد لولده المهمل : العب كما تريد ، فـهو لا يقصد أمر ولده باللعب بالطبع ، بل يريد تهديده وتأنيبه .

وهكذا فى : ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [الكهف] وإلا لو أخذتَ الآية على إطلاقـها لَكانَ مَنْ آمن مطيعـاً للأمر : ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن .. (٢٩)﴾ [الكهف] والعاصى أيضاً مطيع للأمر : ﴿وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [الكهف] فكلاهما ـ إذن ـ مطيع ، فكيف تُعـذِّب واحداً دون الآخر ؟

فالأمر هنا ليس على حقيقتـه ، وإنما هو للتسوية والتهديد ، أى : سواء عليكم آمنتم أم لم تؤمنوا ، فأنتم أحـرار فى هذه المسألة ؛ لأن الإيمان حصيلته عائدة إليكم ، فـالله سبحانه غنىّ عنكم وعن إيمانكم ، وكذلك خَلْق الله الذين آمنوا بمـحمد هم أيضاً أغنياء عنكم ، فـاستغناء الله عنكم مَـسْحـوب على استـغناء الرسول ، وسـوف ينتصـر محـمد وينتشر دين الله دونكم .

وقد أراد الحق سبحانه أن يصيح رسول الله ﷺ بالدعوة في مكة ويجهر بها في أذن صناديد الكفر وعُتَاة الجزيرة العربية الذين لا يخرج أحد عن رأيهم وأمرهم ؛ لأن لهم مكانةً وسيادة بين قبائل العرب .

ولحكمة أرادها الحق سبحانه لم يأتِ نصر الإسلام على يد هؤلاء ، ولو جاء النصر على أيديهم لقيل : إنهم ألِفُوا النصر وألِفُوا السيادة على العرب ، وقد تعصَّبوا لواحد منهم ليَسُودوا به الدنيا كلها ، فالعصبية لمحمد لم تخلق الإيمان بمحمد ، ولكن الإيمان بمحمد خلق العصبية لمحمد .

ثم يقول الحق سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا .. (٢٩)﴾ [الكهف]

والعذاب هنا لمن اختار الكفر ، لكن لماذا تُهوِّل الآية وتُفخِّم أمر العذاب ؟ لأن الإعلام بالعقاب وتهويله وتفظيعه والإنذار به لا ليقع الناس في موجبات العقاب ، بل لينتهوا عن الجريمة ، وينأوْا عن أسبابها ، إذن : فتفظيع العقاب وتهويله رحمة من الله بالعباد ؛ لأن خَوْف العذاب سيمنعهم من الجريمة .

ومعنى ( أعتدنا ) أي : أعددنا ، فالمسألة منتهية مُسْبقاً ، فالجنة والنار مخلوقة فعلاً ومُعدَّة ومُجهَّزة ، لا أنها ستُعَدُّ في المستقبل ، وقد أُعدَّتْ إعداد قادر حكيم ، فأعدَّ الله الجنة لتتسع لكل الخَلْق إنْ آمنوا ، وأعدَّ النار لتتسع لكل الخلق إنْ كفروا ، فإنْ آمن بعض الخلق وكفر البعض ، فالذي آمن وَفَّر مكانه في النار ، والذي كفر وفَّر مكانه في الجنة .

لذلك قال تعالى في هذه المسألة : ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٧٢)﴾ [الزخرف]

إذن : فخَلْق الله تعالى للجنة وللنار أمر منضبط تماماً ، ولن يحدث فيهما أزمة أو زحام أبداً ، بل لكلٍّ مكانه المعدّ المخصّص .

وقوله تعالى : ﴿ لِلظَّالِمِينَ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف] والظلم أن تأخذ حقاً وتعطيه للغير ، وللظلم أشكال كثيرة ، أفظعها وأعظمها الإشراك بالله ، لأنك تأخذ حَقَّ الله في العبادة وتعطيه لغيره ، وهذا قمة الظلم ، ثم يأتي الظلم فيما دون ذلك ، فيأخذ كل ظالم من العذاب على قَدْر ظُلْمه ، إلا أن يكون مشركاً . فهذا عذابه دائم ومستمر لا ينقطع ولا يفتُر عنه ، فإنْ ظلم المؤمن ظلماً دون الشرك فإنه يُعذَّب به ، ثم يُدخله الله الجنة ، إنْ لم يتُبْ ، وإنْ لم يغفر الله له .

وقوله تعالى : ﴿ أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف] السرادق ، كما نقول الآن : أقاموا السرادق أي : الخيمة . ومعنى سرادق : أي محيط بهم ، فكأن الله تعالى ضرب سرادقاً على النار يحيط بهم ويحجزهم ، بحيث لا تمتد أعينهم إلى مكان خالٍ من النار ؛ لأن رؤيته لمكان خَالٍ من النار قد تُوحي إليه بالأمل في الخروج ، فالحق سبحانه يريد أنْ يؤيسهم من الخروج .

ثم يقول تعالى : ﴿ وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف]

الاستغاثة : صرْخة ألم من متألم لمن يدفع عنه ذلك الألم ، كما قال في آية أخرى : ﴿ مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ .. ﴿٢٢﴾ ﴾ [إبراهيم] أي : حين تصرخون من العذاب لا أستطيع أنْ أزيل صراخكم ، وأنتم كذلك لا تزيلون صراخي .

فأهل النار حين يستغيثون من ألم العذاب ( يُغَاثُوا ) يتبادر إلى الذِّهْن أنهم يُغَاثُون بشيء من رحمة الله ، فتأتيهم نفحة من الرحمة أو

يُخفِّف عنهم العذاب .. لا ﴿يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ .. (٢٩)﴾ [الكهف] أى : فإنْ طلبوا الغَوْث بماء بارد يخفف عنهم ألم النار ، فإذا بهم بماء كالمهل .

والمهْل هو عُكَارة الزيت المغلى الذى يسمونه الدُّرْدِىّ ، أو هو المذاب من المعادن كالرصاص ونحوه ، وهذا يحتاج إلى حرارة أعلى من غَلْى الماء ، وهكذا يزدادون حرارةً فوق حرارة النار ، ويُعذَّبون من حيث ينتظرون الرحمة .

وقوله تعالى هنا : ( يُغَاثُوا ) أسلوب تهكميّ ؛ لأن القاعدة فى الأساليب اللغوية أنْ تخاطب المخاطب على مقتضى حاله ، فتهنئه حال فرحه ، وتعزيه حال حزنه بكلام موافق لمقتضى الحال ، فإنْ أخرجتَ المقتضى عن الحال الذى يطلبه ، فهذا ينافى البلاغة إلا إنْ أردتَ التهكُّمَ أو الاستهزاء .

إذن : فقوله تعالى عن الكفار : ﴿وَإِن يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ .. (٢٩)﴾ [الكهف] تهكّم بهم ، لأن الكلام فيه خرج عن مقتضى الحال ، كما يقول الوالد لولده الذى أخفق فى الامتحان : مبارك عليك السقوط .

ومعنى : ﴿يَشْوِي الْوُجُوهَ .. (٢٩)﴾ [الكهف] أن الماء من شدة حرارته يشوى وجوههم ، قبل أن يدخل أجوافهم : ﴿بِئْسَ الشَّرَابُ .. (٢٩)﴾ [الكهف] أى : الذى يغاثون به ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا (٢٩)﴾ [الكهف] المرتفق هو الشىء الذى يضع الإنسان عليه مِرفقه ليجلس مُستريحاً ، لكن بالله هل هناك راحة فى جهنم ؟

إذن : فهذه أيضاً من التهكّم بهم وتبكيتهم ، كما قال تعالى

مخاطباً جبابرة الدنيا وأعزّتها وأصحاب العظمة فيها ممَّنْ عَصَوْا الله :
﴿ ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ (٤٩) ﴾ [الدخان]

والحق سبحانه وتعالى يتكلم فى هذه المسألة بأساليب متعددة ، منها استخدام كلمة ( النُّزُل ) وهو ما يُعد لإكرام الضيف ، كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً (١٠٧) ﴾ [الكهف]

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلائِكَةُ أَلاَّ تَخَافُوا وَلا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ (٣٠) نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ (٣١) نُزُلاً مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢) ﴾ [فصلت]

فالذى أَعَدَّ هذا النُّزُل وهذه الضيافة هو الغفور الرحيم ، والذى يُعد نُزُلاً لضيفه يُعدّه على قَدْر غناه وبَسْطة كرمه ، فما بالك بنُزل أعدّه الله لأحبابه وأوليائه ؟

وذيّل الآية بقوله : ﴿ غَفُورٍ رَّحِيمٍ (٣٢) ﴾ [فصلت] لأنه ما من مؤمن إلا وقد عمل سيئة ، أو همَّ بها ، وكأن الحق سبحانه يقول : إياك أنْ تذكرَ ما كان منك وأنت فى هذا النُّزُل الكريم ، فالله غفور لسيئتك ، رحيم بك ، يقبل توبتك ، ويمحو أثر سيئتك .

والحديث عن النُّزل هنا فى الجنة ، فهى محلُّ الإكرام والضيافة ، فإن استخدم فى النار فهو للتهكُّم والسخرية من أهلها ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) ﴾ [الواقعة] فقد استخدم النزل فى غير مقتضاه .

بعد أن جاء الأمر الإلهي في قوله تعالى : ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. (٢٩)﴾ [الكهف] أراد سبحانه أنْ يُبيِّن حكم كُلٍّ من الاختيارين : الإيمان ، والكفر على طريقة اللَّفِّ والنشر[١] ، وهو أسلوب معروف في العربية ، وهو أن تذكر عدة أشياء ، ثم تُورد أحكامها حَسْب ترتيبها الأول ، أو تذكرها مُشوَّشة دون ترتيب .

ومن النوع الأول الذي يأتي فيه اللَّفُّ والنشْر على الترتيب قوله تعالى : ﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ .. (٧٣)﴾ [القصص] أي : لتسكنوا في الليل ، وتبتغوا من فضل الله في النهار .

فالترتيب إذا كان الحكم الأول للمحكوم عليه الأول ، والحكم الثاني للمحكوم عليه الثاني وهكذا ، ومن ذلك قول الشاعر :

قَلْبِي وَجَفْنِي وَاللسان وخالقي

هذه أربع مُخْبر عنها ، فما قصتها وبماذا أخبرنا عنها ؟ يقول :

قَلْبِي وَجَفْنِي وَاللسَانُ وَخَالِقِي ... رَاضٍ وبَاكٍ شَاكِرٌ وغَفُورُ

فتكون على الترتيب : قلبي راضٍ ، وجفني باكٍ ، ولساني شاكر ، وخالقي غفور .

ومرة يأتي اللف والنشر على التشويش ودون ترتيب ثقةً بأن نباهةَ السامع ستردُّ كل شيء إلى أصله[٢] كما في الآية التي نحن

---

(١) اللف والنشر : هو أن يذكر شيئان أو أشياء ، إما تفصيلاً بالنص على كل واحد أو إجمالاً ، بأن يؤتى بلفظ يشتمل على متعدد ، ثم يذكر أشياء على عدد ذلك ، كل واحد يرجع إلى واحد من المتقدم ، ويفوض إلى عقل السامع رد كل واحد إلى ما يليق به [ الإتقان في علوم القرآن ٣/٢٧٩ - ٢٨١ ] .

(٢) وذلك مثل قوله تعالى : ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١٠٧)﴾ [آل عمران] .

بصددها ، فتلاحظ أن الحق سبحانه بعد أن قال : ﴿ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف] فبدأ باختيار الإيمان ثم ذكر الكفر ، أما في الحكم على كل منهما فقد ذكر حكم الكفر أولاً : ﴿ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا .. ﴿٢٩﴾ ﴾ [الكهف] ثم ذكر بعده حكم المؤمنين : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴿٣٠﴾ ﴾ [الكهف]

وليكُنْ في الاعتبار أن المتكلم رَبٌّ حكيم ، ما من حرف من كلامه إلا وله مغزى ، ووراءه حكمة ، ذلك أنه تعالى لما تكلّم عن الإيمان جعله اختياراً خاضعاً لمشيئة العبد ، لكنه تعالى رجّح أن يكونَ الإيمانُ أولاً وأنْ يسبق الكفر . أما حينما يتكلم عن حكم كل منهما ، فقد بدأ بحكم الكفر من باب أنْ « دَرْءَ المفسدة مُقدَّم على جَلْب المنفعة » .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ ﴾

وهنا نلاحظ أن الحق سبحانه عطف على الإيمان العملَ الصالح ؛ لأن الإيمان هو العقيدة التي ينبع عن أصلها السلوك ، فلا جدوى من الإيمان بلا عمل بمقتضى هذا الإيمان ، وفائدة الإيمان أنْ تُوثّق الأمر أو النهي إلى الله الذي آمنتَ به ؛ لذلك جاء الجمع بين الإيمان والعمل الصالح في مواضع عدّة من كتاب الله ، منها قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴿٣﴾ ﴾ [العصر]

ذلك لأن المؤمنين إذا ما أثمر فيهم الإيمانُ العملَ الصالح فإنهم سيتعرضون ولا بُدّ لكثير من المتاعب والمشاق التى تحتاج إلى التواصى بالصبر والتواصى بالحق ، ولنا أسوة فى هذه المسألة بصحابة رسول الله ﷺ الذين تحمّلوا عِبء الدعوة وصبروا على الأذى فى سبيل إيمانهم بالله تعالى .

ثم يقول تعالى : ﴿إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ۝٣٠﴾ [الكهف]

نلاحظ أن ( مَنْ ) هنا عامة للمؤمن وللكافر ؛ لذلك لم يَقُل سبحانه : إنَّا لا نضيع أجر مَنْ أحسن الإيمان ؛ لأن العامل الذى يُحسِن العملَ قد يكون كافراً ، ومع ذلك لا يبخسه الله تعالى حقَّه ، بل يعطيه حظه من الجزاء فى الدنيا .

فالكافر إن اجتهد وأحسن فى علم أو زراعة أو تجارة لا يُحرم ثمرة عمله واجتهاده ، لكنها تُعجَّل له فى الدنيا وتنتهى المسألة حيث لا حَظَّ له فى الآخرة .

ويقول تبارك وتعالى : ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً ۝٢٣﴾ [الفرقان]

ويقول تعالى : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ[1] عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلاهَا مَذْمُوماً مَّدْحُوراً ۝١٨﴾ [الإسراء]

ويقول تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئاً وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝٣٩﴾ [النور]

(١) العاجلة : الدنيا . والآجلة : الآخرة [ لسان العرب ـ مادة : عجل ] .